سبيل إلى معرفة الله

تامر جابر محمود

لطالما أخذ المسلمون (فضلا عن غيرهم) صورة هذا الوجود بقوانينه التي تحكمه، مأخذ الإلف والاعتياد. وكأن وجود الأشياء على طبيعتها هذه، هو الأصل. وكأن مسلكها وتصاريف شأنها (أحياء كانت أم جمادات)، أتى بتراكم وتتابع الأزمان فانتظم هذه النِّظْمَة. فإذا عرَّجت في الحديث عن هذه الصورة للوجود بقوانينه، وربطت هذا كله بالإله، بدا حديثك في عين الناس مُتكلفاً مُتصنِّعاً. وتبدَّت منهم علامات الأنَفَة من ربط العِزة الإلهية، بالمعادلات الكيميائية والفيزيائية والرياضية. فما علاقة الإله الذي تعرَّفوا عليه دهوراً طويلة من كتاب الدين بالمدارس، ومن وُعاظ المساجد، ولم يخرج الحديث عنه عن الصلاة والزكاة والتراتيل والتسابيح، بتراكيب الذرات، أو بجدول مندليف للعناصر، أو برياضيات منكوفسكي، أو باستخراج طاقة هائلة من نواة عنصر ؟!.

بل ولم يتوقف مسلم اليوم ولو لمرة واحدة في حياته ليسأل نفسه، ما بال البحار والمحيطات بأغوارها وأعماقها وقد عجَّت بمختلف صور الحياة والأحياء، لكلٍ صورة حياة متفردة، بما فيها من تزاوج وتنافس وتكاثر؟.

وما بال الأحراش والغابات وقد طَفَحَتْ بأمم أمثالنا، لكلٍ منهم مجتمعه ونهج حياته ومنظومة صراعاته ؟.

عوالم بأكملها تعامى عنها العرب والمسلمون، وكأنها ما وُجدت لأجلهم.

ممالك باهرة بكليتها ، انصرف عنها العرب والمسلمون وكأنها ما وُجدت لحكمة تخصهم ، وكأنه لا شأن لهم بها.

وكأن ربهم ما أقسم بالأعداد زوجيها وفرديها ....!

وكأن ربهم ما عرَّف نفسه بأنه الذي قدَّرَ كل شئ تقديراً....!

ولهذا السبب، وعلى مدار السبعمائة عام الماضية ، فات على المسلمين الصورة الواضحة لطريقة الحياة التي أضافها هذا الدين، كما فات عنهم آلية الوصول لهذه الصورة بسلاسة ودون تكلف. فأمسى لهم حديث شبه مُفرَّغ المضمون عن الشريعة الإسلامية، مثلما هو ملتبس ومفتقرٌ تماماً لكيفية تطبيقها.

لقد تكلم الكثيرون (حتى من أئمة العلماء) في هذا المبحث، ولكنه حديث لم يجاوز الظاهر. فأقدمْتُ على عرض ما جادَ الله به عليَّ من خطوة أو خطوتين، ذهبتُ فيهما لأبعد ممن سبقني في هذا الصدد.

مَقصد المبحث إذاً، وضع منهجية لحياة إيمانية تقوم على معرفة الله من تفاصيل كل بند من بنود خلقه. من الزيتونة والرمانة، إلى السمكة والطائر، ومن الجبال وتصريف الرياح والسحاب، إلى الشمس والقمر والنجوم المُسَخَّرات، على اختلاف أنواع الزيتون والرمان والأسماك والطيور والجبال والسحاب وأجرام السماء. ففي كل صِنف منها من المعرفة بالله نفسه ما لانهاية له، لأن خِلقتها كلها كانت بالحق بنص القرآن.

والأهم، أنها المعرفة التي توقظ القلب فينفعل بها، ويستقيم لها. لا المعرفة القائمة على التعريفات اللغوية، والتي لاتُحدث الأثر الإنفعالي والاستجابيّ في القلب. فإن بَغيتَ الدليل على قولي، فإليك حُكم الله الفصل:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

وليست خشية الله وحدها هي مكسب المؤمن من دراسة تفاصيل كون الله، فطمأنينة القلب إلى الحقائق هي الأخرى من ثمرات دراسة كون الله، وهو ما بينته تجربة إبراهيم عليه السلام مع سؤله الله أن يريه كيفية إحياء الموتى (ليطمئن قلبي)، وكذلك التبيُّن القلبي، والعلم بعد الحيرة، وهو ما برهنت عليه تجربة عُزير التي وردت بسورة البقرة الكريمة الماجدة (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ).

فكلها تجارب مع أولياء الله شكَّلت مادة لإيمانهم ولتثبيت يقين قلوبهم ، وربطت بين تقواهم وبين موجودات هذا الكون ، وسجَّلها القرءان ليعطي السالكين إلى الله نبراساً مضيئا في الطريق إليه . ولسوف نقرأ بالمبحث تجارب أخرى مع الكون وصور الوجود وقوانينه ، كانت سبباً في يقين رسل أولي عزم ، وثباتهم عند مواجهة أعداء الله .

إن المطلوب من هذه النواة إن صحَّت وثُبِّت، أن تستتبعها آلية تجمّع علماء الربوبية المتخصصين في شتى العلوم بعلماء الألوهية الأعلين لا حُفَّاظ المتون، ليخرجوا علينا بهذه الثمرة المطلوبة. فيكشف الإثنان مجتمعان آثار الأسماء والصفات كافة، في كل بند من بنود الخلق، مع الاجتهاد في طلب هذا المقصد مهما تكلف من وقت وجهد.

فكل إنجاز لم يتطلب مثابرةً ومُكابدة للصعاب، إنجازٌ هزيل بلا قيمة. وكل سؤال في العلم لا يتطلب حفراً في الصخر بحثاً عن إجابة جديدة، سؤال تافه لا يستحق الطرح. وكل ركون في العلم لمألوف سُبقنا إليه، دناوة وخسة نفس. وإنما الإبداع الحقيقي، هو الإتيان بالسبق نفسه، وكشف ما أطبقت عليه سُدُم الإبهام والغموض، وفات الأقدمون كشفه. وإلا، فلا بالخلق بالحق انتفعنا، ولا التشريع بالحق اتبعنا.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾

تُشير الآية الكريمة ، لصورة من الصور التي تعرَّف الرب العظيم بها إلى عباده، ولطالما غفل هؤلاء عنها. فالوجود والعدم، وكل صورة من صور الوجود والعدم، أتت اقتضاءً مباشراً، وتجسيدا مستقيماً، لآثار اسم أو صفة لله سبحانه. وهكذا يُشكل الوجود في وعي المؤمن وتصوره ، مَعرِضا حياً للأسماء والصفات كافة. ليس فقط دليلاً على وجود الخالق. لا . وإلا كان تصوراً بمنتهى السذاجة لهذا الوجود المترامي ولغرضه. ولا فقط دليلاً على القدرة والعظمة وحدهما. وإلا فإن المرء حينها يكون قد جحد ما لسائر الأسماء والصفات الأخرى من تجليات وآثار، تسببت تسبُّباً مباشراً في وجود هذا المعرض الحي ... ، معرض الوجود بكل ما فيه من غنى، وما عَجَّ فيه من صور الحياة.

- وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ
- وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ
- فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ

" إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن الإنس، والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه "

تسمية المطر بالرحمة في القرءان ، من تسمية الشئ بسببه. كذلك سمى الله تعالى المسيح بن مريم عليهما السلام بكلمته (كن فيكون)، إذ كانت سبباً في خلقه وإيجاده . وهو شائع في العربية .

- صفة الرحمة الإلهية ، هي السبب في الظاهرة الكونية المسماة بالمطر ،
- وصفة الرحمة الإلهية ، هي السبب في ظاهرة إحياء الأرض الموات ،
- وصفة الرحمة الإلهية ، هي السبب في مشهد من سلوك البشر والهوام بل وهي السبب في سلوك الدابة حين ترفع حافرها ، لئلا تطأ وليدها . فهل من دليل آخر على كون كافة أسمائه وصفاته هي السبب في كل ما نشهده ونراه من ظواهر الوجود ؟

في سورة الأعراف ... وردت ثنائية جمعت أطراف الحق في الشرع وفي الكون كله، وهي ثنائية اشرأبت أعناق الفلاسفة والباحثون عن الحقيقة تلمُّساً لها وتعطُّشاً، وماتوا ظمئى دون رَيٍّ منها. تلك هي الثنائية التي في قوله تعالى:" أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ". فللحق صورتان، صورة في الخلق "وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ "، وصورة أخرى في التشريع "أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ". أما الصورة الثانية، فنالت قبول المؤمنين علماؤهم وعامتهم، وتلقوها بالقبول والامتثال الكامل. لكن الصورة الأولى هي التي لم تستوقف الناس ولم تلفتهم، وفاتت على أكثرهم.

حينما ذهب الكليم إلى فرعون يدعوه إلى ربه، سأله فرعون "قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ".

أما سؤال فرعون .... فكان من الحصافة أن طرحَ هذا الميراث الوثني كله لمَا استبان بوجها نبيا الله من الصدق والحق. فسألهما " فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ "، ولم يسألهما "فما ربكما"، والفرق بين الإثنين كبير كما علمت. وكم كانت إجابة كليم الله أشد إدهاشاً وإذهالاً. كان جواب كليم الله "قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ".

ومن لحظة تفوُّه كليم الله بهذا الجواب، ما عاد يصلح أن نفصل بين الواجد وموجوداته، أو قل إن شئت الدقة، معرفة الواجد من موجوداته، والخالق من مخلوقاته. لأن ذلك بحسب الآية، المدخل الذي ارتضاه الله ليُعرِّف بني آدم بنفسه سبحانه، ومن سبعة آلاف عام.

يعرف أهل الطب والعلوم، أن هناك ارتباطا لا ينفصم بين شكل المخلوق (كائنا حياً أو جماداً) وبين وظيفته. فلكل مخلوق خِلقةٌ تخوله أداء دوره في الوجود، ولولاها لما استطاع ذلك. وهو الأمر الذي عادت آية سورة الحشر لتأكيده وتفصيله بقوله تعالى عن نفسه: ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ

فالخلق هو الإيجاد من العدم، والإبراء هو الوظيفية التي منحها الله للشئ، والتصوير هو صورة هذا الشئ أو خِلقته التي نراها به. واسم الله الهادي، والذي ورد بسورة طه المذكورة، يعني إرشاده كل شئ خَلقه[1]، لمسلكه ودوره في هذا الوجود. فالذي خلق كل ذَرة على بِنيتها وطبيعتها (جسيمية أم موجية)، ووجَّهها للدخول في تفاعلات بعينها ومنعها من تفاعلات أخرى وعيَّنها عنصراً فلزيا أو لافلزيا، هو الله. والذي أعطى لذرة كل عنصر قَدرها وعددها وكُتلتها هو الله. أليس هو القائل عن نفسه، والواصف لذاته بقوله :

" وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا "

" كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُۥ بِقَدَرٍ "

إن الذي خلق الفيروس الكبدي القاتل "C"، وهداهُ لكيفية تشميع الكبد المصاب به حتى يهترئ فيموت صاحبه، هو الله. والذي خلق فيروس الإيبولا ليُذيب جسم الإنسان وهو بعدُ حي، وأعطى له الخِلْقة المؤهلة لذلك، وهداهُ لهذه الوظيفة التدميرية هو الله.

فيرس الإيبولا، والمنظومة الربانية التي استهدفت من خَلقِه منظومةً مَرَضيةً بعينها

حتى المرض وإن مثَّلَ خروجاً عن الحالة المنتظمة (حالة الصحة)، تجده ممنهجاً في نفسه مُنظَماً، حتى أنه صار علماً منهجياً تُدرِّسهُ كليات الطب بأعراضه وجواهره باسم "علم الأمراض" أو Pathology. ولم لا والله عرَّف إلينا نفسه بقوله :

"صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ "

" ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ "

بل وحتى الموت بما فيه من فَناءٍ ارتآه الفلاسفة عدماً وسلباً، ليس كذلك إطلاقا . ألم يقل فيه خالقه:

" ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ "

فالموت مخلوق مثله مثل الحياة تماماً. وله منظومة مُتقنة ومُمنهجة كالحياة سواءً بسواء. منظومةٌ يدرسها طُلاب الطب، ويعرفون مراحلها، وخطواتها المُرتبة، خطوةً بخطوة[2]. فللحياة أعلام وللموت أعلام.

فإذا تأملت الكوكب الأرضي المفترض أنه خُلق ومُهد لسُكنى بني آدم إياه، لوجدته يعج بشتى صور المهلكات والمفنيات لحياته. فالفيروس والميكروب والفطر والبكتيريا الضارة، وهي بعشرات الآلاف من الأسماء والتكوينات الخلقية، والوظائف التدميرية، ليست وحدها التي تترصد للفتك بحياة هذا الكائن. فلتُضف للقائمة العقارب والعناكب والأفاعي والديدان السامة كلها، وهي التي تحمل سموماً تنوعت لتُصنَّفَ في عشرين مليونا في الأصناف والفئات، كلها تترصد لإفناء حياة هذا المخلوق المُكرَّم . ولكن أليس في هذا المشهد الجامع، معارضة لقاعدة تكريم الله للإنسان ؟ . وأيَّ تكريم هذا الذي يُسلِّط على المخلوق المكرم أدوات الإفناء والإشقاء البشعة هذه كلها ؟ . الحق أننا لو توقفنا عند ظاهر هذه الصورة، لبدت الحياة كئيبة ومشوهة. بل وتحقق فينا قول الآية الكريمة :

"وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا " الروم: ٦ - ٧

إلا أن الصورة وبالحُسن الطالع هكذا ليست مكتملة. فقد تجاوز القرآن ذلك الظاهر الذي توقف عنده الجاحد، إلى باطن (لأن الله هو الظاهر والباطن) آخر يَقضي بأن كُل ذلك وُجِدَ مُسخراً لخدمة الإنسان وعظيم نفعه، وأن في كلٍ إشارة إليه ودلالةً عليه سبحانه . فانظر لقوله تعالى:

"هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا لَا "

البقرة: ٢٩

فكيف ذلك ؟ وكيف أن باطن عوامل هذه الفتك كلها مُسخر لخدمة بني الإنسان وإن خالف ظاهرها هذا ؟

ذلك ما سنجيب عليه في الجزء التالي بإذن المولى تبارك وتعالى.

---

(1) قال تعالى في سورة طه: " قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ " طه: ٤٩ - ٥٠

(2) من التيبس إلى التعفن ثم التحلل التام، ومن عمل أمة الدود إلى نخر العظام. ولكلٍ توقيت حدوثه، وفترة امتداده وبقائه.